



النصيحة التي قدمها مسؤولون في عواصم غربية عدة إلى صناع القرار في بلادهم، أن الصراع السوري مرجح أن يستمر بين خمس وعشرين سنة ولا بد من وضع السياسات الاستراتيجية على أساس احتمالات متوسطة وطويلة المدى وليس قريبة الأجل.

وفق المعلومات المتوفّرة، تكثّفت في الأسابيع الأخيرة الاجتماعات السياسية والأمنية بين حلفاء المعارضة و«أصدقاء الشعب السوري».

عقدت اجتماعات عربية - إقليمية - أوروبية - أميركية في واشنطن، واجتماعات بين الدول الأوروبية وأخرى بين الدول الأوروبية والجانب الأميركي في واشنطن أيضاً، شارك في هذه الاجتماعات كبار المسؤولين الأمنيين. كما عقد مسؤولو التخطيط السياسي وخبراء في الشرق الأوسط اجتماعات مغلقة لمراجعة السياسة الخاصة بسوريا.

حرك هذه الاجتماعات، كان فشل جولتين من محادثات جنيف بين ممثلي النظام و«الائتلاف الوطني السوري» المعارض، حيث تبيّن لهؤلاء الأطراف مدى هشاشة التفاهم الأميركي - الروسي وكونه لا يتجاوز إبقاء الوفدين السوريين في سويسرا وعقد مؤتمر دولي للبحث عن حل للأزمة السورية.

أيضاً، أضاف التوتر بين موسكو وواشنطن إزاء أوكرانيا وعودة أجواء حرب باردة، رياحاً باردة إضافية على التفاهم الهش سورياً.

كما أن بطيء تنفيذ إزالة الترسانة الكيماوية السورية، وضع تساؤلات إضافية في عواصم غربية، خصوصاً في واشنطن حول مدى نجاح السياسة الخاصة بسوريا في السنوات الثلاث الماضية.

وتعريض الرئيس باراك أوباما لموجات لولبية من الانتقاد من الجمهوريين ومراسلي أبحاث وصنّاع رأي في واشنطن، كان بينما قول مستشار الأمن القومي السابق إن أميركا صرفت ستة تريليونات دولار بعد تفجيرات 11 أيلول (سبتمبر) 2011 لـ «محاربة الإرهاب»، غير أن النتيجة أن سورياً تحولت مولداً ومصدراً للإرهابيين بدلاً من أفغانستان، بل إن مسؤولاً آخر قال في جلسة مغلقة، إنه إذا بقيت السياسة الأميركيّة على حالها فعلينا أن نتوقع «مئات التفجيرات مثل أيلول، المقبلة

من الأرض الخصبة في سوريا».

كان التهديد المُقبل من وجود متطرفين في سوريا، العامل الأكثر سخونة لمراجعة «السياسة السورية»، إذ باتت أجهزة الأمن الأوروبية والأميركية تتبع زيادة التهديدات وأرقام الجهاديين العائدين من سوريا، بل إن معلومات استخباراتية تحدثت عن وجود إشارات قوية لاحتمال تعرض دول غربية لهجوم إرهابي مصدره سوريا.

وقال بعض المسؤولين إن الإرهاب بات يشكل تهديداً للأمن الداخلي لدول غربية وإن سوريا «باتت مشكلة داخلية». وصل جرس الإنذار إلى صناع القرار، لكن انقساماً حصل إزاء كيفية الرد. بعض الدول الأوروبية يرى إمكانية إعادة فتح خطوط التعاون الأمني مع النظام السوري، وأعادت الحرارة إلى التمثيل الدبلوماسي المُجدد، سواء بقبول اعتماد بعض الدبلوماسيين السوريين في سفارات أوروبية، أو إرسال دبلوماسيين سراً أو علناً إلى العاصمة السورية. وافق هذا البعض بخجل على معادلة «الشيطان الذي تعرفه أحسن من الشيطان الذي لا تعرفه» حلاً لمعادلة النظام – الجهاديين.

دول أوروبية أخرى، ناقشت احتمال الانخراط مع النظام، ووصلت إلى استنتاج بأن «النظام فقد الشرعية ولن يجري التعامل معه حالياً».

وفي هذا السياق احتجت دول مثل فرنسا وبريطانيا على زيارة مسؤول الشرق الأوسط في المفوضية الأوروبية كريستيان بيرغر دمشق، لأنها أعطت إشارة خطأً لدمشق وتمت من دون إجماع أوروبي.

السياسة الأوروبية منقسمة، مع إجماعها على وجود خطر الجهاديين العائدين من دمشق. نوّقش احتمال فتح الأقنية ووضع على الطاولة، لكن انقساماً كان إزاء القرار.

أما في واشنطن، فإن مسؤولين أميركيين أعلناً أن الرئيس السوري بشار الأسد «مغناطيس» للإرهابيين وهو «يُجذب» الجهاديين إلى بلاده، ويررون الحل في تسوية سياسية ومرحلة انتقالية تبدأ بتشكيل هيئة حكم انتقالية بين النظام والمعارضة تفضي إلى انتهاء حكم الأسد.

لكن المشكلة – وفق رأيهما – أن النظام غير جدي في التفاوض على ذلك، وأن المشكلة الثانية، أنه يتلقى دعماً كاملاً عسكرياً وسياسياً وأمنياً واقتصادياً من موسكو وطهران، بما في ذلك دعم إجراء انتخابات رئاسية في الشهرين المقبلين يشارك فيها الرئيس الأسد مع تشجيع إيراني للنظام للمضي في عقد تسويات محلية في ريف دمشق ناجمة عن حصار شديد لهذه المناطق.

المعادلة التي قرأها مسؤولون غربيون، وردت كالتالي:

روسيا وإيران تقدمان الدعم الكامل للنظام، وربما يزداد دعم موسكو بعد أحداث أوكرانيا. وليس هناك مؤشرات إلى تغيير في سياسة طهران.

النظام يستعيد السيطرة على مناطق في ريف دمشق ويربطها بالساحل مع إحكام السيطرة على دمشق وإغلاق ممرات الإمداد من لبنان.

المعارضة العسكرية منقسمة في الشمال بين معتدلين وإسلاميين وبين إسلاميين وجهاديين وبين جبهة الشمال وجبهة الجنوب.

المعارضة السياسية تواجه تحديات. ارتفاع التهديد الإرهابي من شمال سوريا مع محدوديته في الجنوب وبداية ظهور مؤشرات توسيع وجوده في الجولان وخروجه عن حدود السيطرة.

وعليه، تقوم عناصر السياسة المتوقعة في الفترة المقبلة، على «إذاء النظام وليس إسقاطه» و «تغيير حسابات النظام وليس تغييره» و «وقف تدهور ميزان القوى وليس تغيير ميزان القوى» و «دعم المعارضة لمنع انتصار النظام وليس

لانتصارها»، ما يعني توقيع «زيادة كبيرة في كمية السلاح وزيادة قليلة في نوعية السلاح» ومضادات الطيران والدروع. التفكير الغربي، أنه كلما شعر النظام بأنه انتصر واستعاد السيطرة على منطقة معينة، ستفتح معركة أخرى في مكان آخر. في الوقت نفسه، لن يُسمح للمعارضة أن تحقق نصراً باهراً. وخير مثال على ذلك، فتح «معركة الساحل» بعد أيام من استعادة النظام مدعوماً بعناصر من «حزب الله». مناطق استراتيجية في القلمون، أي أنها سياسة البرميل المثقوب: كلما تم إغلاق ثقب فيه، فتح ثقب آخر.

ماذا يعني هذا؟

يعني أن سوريا مقبلة على نزفٍ بطيء وأن طرفي الصراع السوري، النظام والمعارضة، مقبلان على «حرب استنزاف» في محيط من النزف الإقليمي، إذ إن مسؤولاً غربياً، قال إن سوريا ستكون «فيتنام إيران»، كما كانت فيتنام نفذاً لأميركا. كما أن استنزافاً سيحصل بين «حزب الله» و«جبهة النصرة». ولن يُسمح للنظام بالانهيار الكامل في جميع مناطق سوريا أمام انتشار خطر المتشددين. ولن يُسمح أن تُمنى المعارضة وما تبقى منها من المعتدلين بهزيمة نكراء.

بالنالي، فإن سعي النظام إلى استعادة السيطرة الكاملة على الأراضي السورية، وإعادة عقارب الساعة إلى 2010، إذا كان أحد من المسؤولين في دمشق مقتناً به، لا يعود كونه سرابة. وكلما اقترب «الجسم العسكري» من خواتمه، تبيّن أنه سراب، مثله مثل الوهم إذا كان أحد المعارضين يعتقد أنه في الوقت الراهن سيصل إلى القصر الرئاسي في دمشق.

التفكير الغربي، أنه بعدما تُنهك الأطراف السورية والإقليمية، يأتي موسم حصاد التسوية السياسية المنثبة من عملية جنيف السياسية التي يصر رعاتها على تركها دائرة بعقد «جنيف - 3».

تسوية تنبثق من تقسيم وفق الواقع الذي سيجري في سوريا في الفترة المقبلة ومع مرور الزمن. شريط تحت سيطرة كاملة للنظام من دمشق إلى الساحل مروراً بحمص. ومناطق خارج سيطرة النظام، لكنها ليست تحت سيطرة مطلقة للمعارضة.

مثل لنفوذ كردي كبير في شمال البلاد وشمالها الشرقي. وبقع جلد النمر لمناطق تحت تأثير فصائل معارضة أخرى. وجود أمراء حرب وطبقة اقتصادية واجتماعية جديدة بتمويلات سياسية ووجود ميليشيات وجموعات محلية في مناطق المعارضة والنظام.

وقتها، تكون الدولة المركزية السورية انتهت، كما انتهت قبلًا في العراق وليبيا والسودان والأراضي الفلسطينية (بتحفظ بسبب ظروف الاحتلال).

ويكون الحل السوري العتيق والعقد الاجتماعي - السياسي الجديد ترجمة لنفوذ الإدارات المحلية والقيادات الصاعدة وتفكك مركزية الدولة، بل إن البعض تحدث عن عرض قدّمه ممثّلون للنظام في مناطق ريف دمشق مدعوماً من طهران، بمقاييس حصول الوجاهة على مهمة إدارة الشؤون المحلية وترك السياسة لدمشق - المركز.

كما يمكن ربط مشروع إعادة تنظيم الأحياء المدمرة في أطراف العاصمة في النظرة الاستشرافية لسوريا اللامركزية المقبلة على محاسبة بنكهة ما قبل الهوية الوطنية.

لكن، في الوقت نفسه، تزداد حالياً حدة تمسك النظام بجميع رموز النظام الشمولي الدعائية والسياسية وأدواته الأمنية والعسكرية في المناطق الخاضعة مطلقاً لسيطرته، كتعويض عن فقدان السيطرة في أماكن أخرى. لكنه أيضاً، هو لبنة في طريق اللامركزية، على أساس أن دمشق ستكون مرآة للتوازنات السياسية في المحاسبة المقبلة.

ضمن المشهد السوري المُقبل، توقع الدول الإقليمية والكبرى نفوذاً لها في السياسة السورية. كل طرف يدعم حلفاءه على أساس طائفية أو دينية أو عرقية.

كما أنها تتوقع أن الحدود السورية، لم تعد سيادية، بالنسبة إلى تدفق المقاتلين والأفراد أو العمليات العابرة للحدود والمساعدات الإنسانية.

ولن تكون حدود سورية مقدّسة سوى على الورق والخرائط وفي الخطابات السياسية والسرديات الأيديولوجية.

الحياة

المصادر: